المدينة والفكر الطوباوي الاجتماعي والحيز الفراغي الحضري التجاري - قراءة في نصوص

د. وليد أحمد السيد

أولا - الفكر الطوباوي والنظرية الإجتماعية واستشراف المستقبل

١- Utopia: Social Theory and the Future - Edited by Michael Hviid Jacobsen and Keith Tester. Ashgate ٢٠١٢

الطوباوية والمدينة الفاضلة هي توجه وبوصلة وليست وجهة، وبالتالي فهي وسيلة للاقتراب من جميع البشر في العالم. فهي رحلة للوصول لما لم يتم بلوغه بعد، وهي التزام للممكن حتى عندما يبدو المحتمل، أو حتى المستحيل، غامرا وساحقا لدرجة غير متوقعة. وبرغم ما قد يشير إليه بعض الطوباويين الذين نصبوا أنفسهم في القرن العشرين، المدينة الفاضلة هي رحلة لا يمكن أن تنتهي أبدا. المدينة الفاضلة ليست مفارقة تنطوي على الذين يعيشون في التنظيم السياسي «النقي عرقيا» وحيث تكون جنة للبروليتاريا، وتكون بمثابة <السوق الحرة> أو مدينة العقلانية. المدينة الفاضلة ليست نهاية، فهي لحظة دائمة ومستمرة للبداية. والمقاربة الأساسية بعد هذه التعاريف، تتضمن أن هناك ظروف تفسر العلاقة بين اليوتوبيا والنظرية الإجتماعية. هذا الكتاب يأخذ خطوات لمعالجة هذه القضايا وأكثر من ذلك.

يبدو أن الوقت للتفكير الطوباوي وقد عاد الى الظهور، فقد تبين أن العولمة لم تكن الدواء الشافي العالمي لكل شيء كما قد ظن البعض، وفي ذات الوقت فلم يحقق السوق الحر ما ادعت أنها ستقوم بعمله. ومن هنا فقد جاء الوقت للبحث عن الإلهام وعن المدينة الفاضلة، والبحث عن الرؤية التي لم تكن بحد ذاتها من أجل الكمال أو سعيا نحوه. وإذا تبين، كما يسعى هذا البحث للعمل على ايجاد الإسئلة بخصوصه، أن السياسة لا تملك الا القليل لتقدمه، وإذن ماذا يمكن للنظرية الإجتماعية أن تساهم في تصور أو صوغ المستقبل؟ هل النظرية الإجتماعية مهمة على الإطلاق؟ وماذا يمكن للنظرية الإجتماعية أن تقدم في هذا المشروع المتعلق بإعادة النظر في المستقبل ومسألة صوغه وتحديد معالمه؟ لذلك، دون أن تكون مرتبطة بأية أجندة سياسية فهذا الكتاب يبحث في بعض هذه الإسئلة والتساؤلات ويقدم محاولة منهجية ومستمرة لجعل النظرية الإجتماعية ذات علاقة وأهمية خاصة من خلال البحث والتمحيص في الموارد والاحتمالات بخصوص التصورات الطوباوية. والمساهمات التي يحويها الكتاب تتضمن عرضا شموليا وموسع الأفق للموضوع، وتعنى بدرجة خاصة بجعل الموضوع ذي اهمية ويقدم حلولا للطوباويين على اختلاف مواقعهم من النظرية الإجتماعية.

كثيرا ما يزعم البعض أن الفكر الطوباوي لا مكان له مشروعا على الإطلاق في التفكير السوسيولوجي، ولكن الطوباوية بقيت جزءا لا يتجزأ من النظرية الإجتماعية لعدة قرون. ولكن وعلى هذا النحو، فبالإضافة إلى الأخذ بنظر الاعتبار دور النظرية الإجتماعية في تصور البدائل المستقبلية واستشراف المستقبل، فهذا الكتاب يعكس كيف يمكن للنظرية الإجتماعية أن تساعدنا في فهم وتقدير الطوباوية واليوتوبيا كموضوع له مجال اهتمام خاص، وكموضوع خاص، أو كمجال بحث تحليلي أو موضوع له بعد تحليلي معياري في إطار التفكير الإجتماعي والنظرية الإجتماعية.

ويجمع هذا الكتاب نصوص من أحدث وأهم البحوث الأخيرة من قبل فريق رائد من المنظرين الإجتماعيين. وهذا الكتاب يهم الباحثين الإجتماعيين والمنظرين في المجالات الإجتماعية والسياسية، والمهتمين بعلم الإجتماع والإنثروبولجيا والفلاسفة بالاضافة لتقاطعه مع تخصصات اخرى كمباحث العمارة والحضرية.

ثانيا - مدن ما بعد طفرة النفط والتغير المناخي

Resilient Cities - Responding to Peak Oil and Climate Change
Peter Newman, Timothy Beatley, and Heather Boyer
٢٠٠٩ Island Press

هذا الكتاب يركز على التحديات التي تواجه المناطق الحضرية في الاستجابة لزيادة انبعاثات الكربون، والاعتماد على الوقود الأحفوري، والتأثير على مواردنا الطبيعية التي لا يمكن تعويضها. الكتاب يأخذ القضايا المزدوجة لذروة النفط وتغير المناخ بوصفه المحور الرئيسي والأساس المنطقي لحاجتنا للتغيير. فهو يصف كيف وقعت بالفعل ذروة إنتاج النفط العالمية، أو قريبة الحدوث جدا ووشيكة وفي متناول اليد نتيجة لمزيج من نقص المادية ونقص السيطرة السياسية على المناطق المعرضة للخطر. وللكثير من الأسباب يتوجب علينا أن نكيف الكثير مدننا لتقليل اعتمادنا على النفط.

الحكم العالمي بات يعترف بالآثار المترتبة على تغير المناخ وتأثير المدن، وهناك حركة نشطة تتطلب من جميع المدن استخدام أقل وأقل من الوقود الأحفوري كل عام. هذا لم يعد نداء اختياريا للمدن، ولكن أصبح ضرورة سياسية وقانونية، فنصف سكان العالم يعيشون الآن في المدن. في السنوات العشرين المقبلة، فإن عدد سكان الحضر سوف يتضخم إلى خمسة مليار شخص، وبالنظر إلى نظم المواصلات التي ستكون غير فاعلة، والمباني المصممة بطريقة سيئة، فإن الكثير من المدن وبخاصة في الولايات المتحدة الأميركية سوف تستهلك كميات هائلة من الوقود الأحفوري وتنبعث منها مستويات عالية من الغازات المسببة للاحتباس الحراري. ولكن كوكبنا ينفد بسرعة من الوقود الكربوني التي زودت الحضرية ونموها لقرون ويبدو أننا غير قادرين على كبح انبعاثات غازات الاحتباس الحراري، والمدن في العالم تبدوا متوجهة إلى الانهيار الحتمي؟

ولا يعتقد واضعو هذا الكتاب بأن النسيان هو بالضرورة مصير المناطق الحضرية و بدلا من ذلك، أنهم يعتقدون أن التخطيط الذكي والقيادة الحكيمة يمكن أن تساعد المدن مواجهة الأزمات الوشيكة، ويتطلعون إلى المبادرات القائمة في المدن في جميع أنحاء العالم، وبذلك فهم يختارون الأمل: أولا من خلال مواجهة المشكلات، ومن خلال توصيف أين نقف اليوم بالنسبة لاستهلاكنا للنفط ومدى مساهمتنا في التغيير المناخي ومسألة الإحتباس الحراري. وردا على سيناريوهات محتملة يوضح الكتاب كيف يمكن تجديد «العمران المستدام» تحل محل حضرية اليوم التي تستهلك الكربون. ويتناول المؤلفون بالتفصيل كيف يمكن لأنظمة النقل الحديثة والمباني عمليا أن تحل محل النظم الحالية منخفضة الكفاءة. وفي الختام، يقدمون عشر «خطوات استراتيجية» التي يمكن أن تأخذ أي مدينة نحو مزيد من الإستدامة والمرونة.

من الممكن تطبيق المرونة إلى المدن والتي تحتاج لتستمر، وأن تكون لديها القدرة لتستجيب للأزمات وتتكيف بطريقة تؤدي للتغيير وتنمو بشكل مختلف، ولذلك تتطلب المدن بنية تحتية مادية وبيئة مبنية قوية. إن قرب الإنهيار الجزئي أو الكلي للمدن والمتجدر في الخوف أو التهديدات الصحية مثل الطاعون أو الحمى الصفراء، أفرغت المدن من أولئك الذين لديهم القدرة على الهرب وتركت الفقراء لمصيرهم. كما دمرت الجيوش الغازية المدن وخلقت المشكلات العنصرية الملايين من المدن الأميركية الملايين إلى الضواحي وخارجها.

مدن الخوف تتخذ القرارات على أساس المدى القصير، بردود فعل واستجابات مذعورة، في حين مدن الأمل تخطط للمدى الطويل، حيث يقود كل قرار خطوة ايجابية نحو تلك الرؤية. مدن الخوف تدخل في منافسة كقوتها الدافعة الوحيدة، في حين مدن الأمل تدخل في توافق الآراء المستند إلى التعاون والشراكة. مدن الخوف ترى التهديد في كل مكان في حين مدن الأمل ترى فرصا للتحسين في كل أزمة. وبينما يكون فهم الآثار المترتبة على أسلوب حياتنا الحالي هو المهم، لا ينبغي أن تكون الاستجابة يقودها الخوف من الانهيار، ولكن عن طريق رؤية تضمن أن مدننا تحقق العيش بأمل وبما يكفل مرونة المدن في المستقبل والتطورات والتحديات التي تجابهها.

هذا ليس كتابا مليئا بنظرية «السماء الزرقاء» (على الرغم من أن السماء الزرقاء ستكون موضع ترحيب في توصيات الكتاب). بدلا من ذلك، فالكتاب زاخر بالأفكار العملية، والتي بعضها يعمل بالفعل في المدن اليوم. الكتاب يقر صراحة بأن المشاكل في مدننا سوف تتفاقم إذا لم يتم معالجتها، لكنه يشير إلى أن هذه المشاكل قابلة للحل، والوقت للبدء في حلها الآن.

ثالثا - تسليع الفراغ الحضري

٣- Retailising Space - Architecture, Retail and the Territorialisation of Public Space
Mattias Kärrholm, Malmö University, Sweden and Lund University, Sweden
٢٠١٢ Ashgate

في أعقاب ظهور وتشكل المجتمع الإستهلاكي، بينت البحوث ان التسوق هو عملية مرتبطة بشكل اكبر من مجرد الجودة والسعر فقط، وأكثر من ذلك مع نمط وصناعة وتشكيل الهوية. على مدى السنوات القليلة الماضية كان هناك انتشار أنواع جديدة من مساحات محلات التجزئة التجارية، والتي ظهرت في كل مكان تقريبا في المشهد الحضري: في المكتبات والكنائس وأماكن العمل والمتاحف. التجزئة أصبحت أكثر جزء واضح وأكثر في المجال العام. المساحات التقليدية للبيع بالتجزئة، مثل مراكز المدن النائية ومراكز التسوق، أصبحت إما كبيرة المساحة أو أخذة في الإنقراض، بحيث أدى ذلك إلى انتاج أنواع من البيئات العمرانية الجديدة المخصصة تماما لتجارة التجزئة. إن خلق مساحات التجزئة الجديدة قد أدت لإعادة وإلغاء الفضاء العام في المناطق الحضرية، وأدى أيضا إلى التحولات في التصميم الحضري ونوع المواد المستخدمة، وحتى في المنطق والطرق التي من خلالها تلبي هذه الخدمات احتياجات تجار التجزئة والمستهلكين سواء بسواء. بعض المستهلكين يميل لاستخدام بعض العلامات التجارية على أنها وسيلة للتمييز الاجتماعي والانتماء. إن عمارة تجارة التجزئة وتصميمها تميل أيضا لتصبح أكثر تفصيلا وتعقيدا، مع التركيز على العلامات التجارية وخلق أماكن إنشاء تسوق صديقة للبيئة.

الهدف الرئيسي من هذا الكتاب هو وضع الإطار المفاهيمي والتحليلي ضمن إطار تحديد دور الهندسة المعمارية في إنتاج المساحات العامة الحضرية في الحياة اليومية. وهذا الإطار المفاهيمي تم تطويره في هذا الكتاب من خلال سلسلة من المقالات التي تركز على التحولات الأخيرة في بيئة التجزئة الحضرية. الكتاب، بالتالي يسأل بعض الأسئلة: كيف تؤثر عملية تسليع من المجالات الحضرية العامة على الحياة اليومية؟ وبشكل أكثر تحديدا: ما هي الأدوار المختلفة التي تلعبها البيئة المبنية في عمليات تحويل الفضاء العام؟

ويجمع هذا الكتاب بين الناحية النظرية المتعلقة بمساحة ونموذج البناء ويستند على المناقشات بشأن تحولات الأماكن التجارية والحضرية. الكتاب ينطلق من البحوث حول الشكل الحضري والعمارة، مع محاولة العمل على التكامل بين البحث المعماري وبين الدراسات الحضرية. ويعنى الكتاب في المقام الأول بمنظور الحيزية، مع التركيز على الكيفية التي تتحدد وتتشكل من خلالها المساحات الحضرية، والكيفية التي تبث بعض الدلالات والمعاني. وبهذا يمكن النظر للكتاب على أنه جزء دراسة تاريخ العمارة والبيئة المبنية وحقل الدراسة المتخصص المعني بدراسات الحيزية المكانية.

وقد تم تنظيم هذا الكتاب حول سلسلة من الحالات الدراسية المستقلة، كل منها يهدف لإبراز بعض جوانب عملية الحيزية المكانية، من الناحية التجريبية. فالكتاب يجمع مادة واسعة تاريخية، تعود في بعض الأحيان إلى القرن التاسع عشر، ولكنه يركز بشكل رئيسي على المجتمع الإستهلاكي كما تجلى ابتداء من ١٩٩٠ فصاعدا. وتظهر الحالات الدراسية التي يعرضها الكتاب تطور مساحات التجزئة التجارية في السويد، ومساحات التجزئة في مدينة مالمو السويدية ثالث أكبر المدن، مع مناقشة. تجارة التجزئة في مجتمعات ما بعد الحقبة الصناعية. الأمثلة في هذا الكتاب هي في معظمها من السويد، لأنها مماثلة لغيرها من الدول الغربية. والمقصود من دراسة هذه الحالات هو تشكيل الأساس لمناقشة طرق جديدة للنظر إلى تحول الفضاء العام وتطوير الأدوات التحليلية التي تجعل من الممكن عمل البحوث والإستقصاء وفتح آفاق جديدة عن دور الشكل الحضري في الأماكن العامة وتحولات مساحات التجزئة التجارية.